

قراءة في فتاوى العمليات الاستشهادية

د. محمد حبش

مدير مركز الدراسات الإسلامية بدمشق

أرجو أن لا يعامل هذا المقال على أنه فتوى دينية، تتولى الرد على فتاوى دينية أخرى، إذ محل الفتيا إنما هو المجامع العلمية والفقهية وليس صفحات الجرائد، ولكنه إذن محاولة لقراءة بعض مواقف السيرة النبوية الكريمة في جوانب الكفاح والفداء. واضح أن القارئ الكريم في مجلة مثل (الإسلام وفلسطين) هو من النوع الغضب الثائر هذه الأيام ليس على عدوه فحسب بل على عدد من أصحاب العمائم الذين يتعاملون مع الجهاد بمواقف سلبية منغلقة من الالتزام بقضايا الأمة، وهو خيار يلجئك بكل تأكيد إلى النزق والغضب والثورة، ولكن بعيداً عن صخب الشعارات فإن هذا المقال ماض ليناقدش بهدوء ووفق منطق الأصول الشرعية مؤدى الفتاوى المتسارعة التي برزت هذا الأيام حول العمل الفدائي، حيث صدر عن عدد من علماء الدين السعوديين فتاوى متتابعة بتحريم العمليات الاستشهادية واعتبار المجاهد الاستشهادي منتحراً، وهو المعنى الذي ذهب إليه شيخ الأزهر - جزئياً - عندما أفتى بتحريم العمليات الجهادية التي تستهدف المدنيين. ومن هنا فالواجب أن نعالج المسألة من زاويتين اثنتين:

الأولى: الفارق بين الاستشهاد والانتحار.
الثانية: مسألة استهداف المدنيين.
الاستشهاد طلب الشهادة، وهو ما كانت عليه ضراعة أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قبل كل معركة: اللهم انصرنا على عدونا،

واكتب لي الشهادة في سبيلك، وهذا المعنى كان حاضراً في ضمير كل مجاهد بحيث لا يحتاج للتدليل عليه، فالمجاهد في الأصل كان يتحرك بطلب الشهادة، عن سعد بن أبي وقاص قال: قال لي عبدالله بن جحش يوم أحد ألا ندعو الله؟ فدعا عبدالله بن جحش فقال: يا رب إني أقسمت عليك إذا لقيت العدو غدرًا فلقتني رجلاً شديداً بأسه، شديداً حرده أقاتله فيك ويقاتلني، ثم يأخذني أنفي وأذني ويبقر بطني، فإذا لقيتك غداً قلت: يا عبدالله من جدع أنفك وأذنك؟ فأقول فيك يا رب وفي رسولك، فتقول: صدقت، قال سعد فلقد رأيتَه آخر النهار وأن أنفه وأذنه لمعلقتان في خيط. ولا شك أن ضراعتهم هذه كانت إدراكاً منهم لحقيقة أنه لا يكتب نصر بدون تضحيات، وأن دماء الشهداء وقود النصر، وهو مبدأ سرمدى، لا زال يفرض نفسه سنة إلهية منذ بدأ دفع الله الناس بعضهم ببعض. ولعل الإشكال الذي يسوقه المنكرون للعمل الاستشهادي هو الآية الكريمة: (ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيماً) وهي آية يقرؤونها للأسف على طريقة (لا تقربوا الصلاة) ذلك أن تنمة الآية واضحة جلية في قوله تعالى: (ومن يفعل ذلك عدواناً ظلماً فسوف نصليه ناراً) فأخبر بأن الجانب المحرم هنا إنما هو القتل عدواناً وظلماً، وهو بالفعل ما يندفع إليه المنتحر اليائس من الحياة، وهيئات أن تصح المقارنة بين رجل يندفع إلى الموت طلباً للشهادة ورجاء تحقيق النكاية في عدوه والفرج لأمته، وبين ذلك القانط اليائس اليائس الذي أراد أن يضع حداً لإخفاقه وفشله فقتل نفسه.

إن أبطال المقاومة والاستشهاد يقدمون على الموت وهم مبتسمون راضون، تترقرق بين أعينهم مشاهد نعوشهم يدفعونها ثمناً لمجد أمتهم ونصرها، وهو مشهد لا يشبه في شيء مشهد المنتحر البائس.

في غزوة مؤتة كان المسلمون يخوضون في الواقع عملاً استشهادياً تاماً في مواجهة عدوهم، فقد كانت عدتهم لا تزيد عن ألفي مقاتل فيما كان عدوهم قد نيف على مائة وخمسين ألفاً مدججين بالسلاح والحديد، وواضح أن إقدامهم على المعركة كان لوناً من طلب الشهادة ومع ذلك فقد تقدم الثلاثة الأمراء: زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبدالله بن رواحة إلى الموت في مشهد يرسم ظلاله رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله: أخذ الراية زيد بن حارثة فقاتل بها حتى قتل شهيداً، ثم أخذها جعفر فقاتل بها حتى قتل شهيداً، ثم أخذها عبدالله بن رواحة فقاتل بها حتى قتل شهيداً، لقد رفعوا في الجنة على سرر من ذهب فرأيت في سرير عبدالله بن رواحة ازوراراً عن سرير صاحبيه فقلت: بم هذا؟ ف قيل لي: مضياً وتردد عبدالله بعض التردد ومضى.

وواضح أن ثناءه صلى الله عليه وسلم على الثلاثة كان بسبب إقدامهم حقيقة على الموت، رجاء ثواب الآخرة، والمعنى نفسه تكرر في مواطن كثيرة.. سأل عوف بن الحارث رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر: يا رسول الله.. ما يضحك الرب من عبده؟ قال: أن يغمس يد وفي يده في العدو حاسراً، فألقى الدرع التي هي عليه فقاتل حتى قتل. (فتح الباري، كتاب الوصايا).

وظاهر أن مشهده وهو يخلع الدرع ويستقبل الموت كان يخلع قلوب أعدائه الذين رأوا في الصحابة جيلاً يحب الموت كما يحب أعداؤهم الحياة، ولا شك أن إقراره صلى الله عليه وسلم لذلك كان رضاً منه بما يصنعه أصحابه في هذا السبيل.

في يوم بيعة الرضوان قال يزيد بن أبي عبيدة لسلمة بن الأكوع على أي شيء بايعتم رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية؟ قال: على الموت.

(البخاري في كتاب المغازي حديث 3936)،
(والترمذي كتاب السير حديث 1595).

ولا شك أن الرسول صلى الله عليه وسلم عندما أخذ منهم البيعة الموثقة على الموت لم يكن يلهو أو يمزح، ولكنه في الواقع استحقاق المرحلة التي يتطلبها الجهاد والعمل الفدائي ليس في الواقع بدعة ابتدعتها الكفاح الفلسطيني، إنه شيء تعرفه كل الشعوب المتطلعة إلى الحرية الراغبة بالخلاص من المظالم، وله أدبيات في سائر تاريخ الكفاح الأممي في الأرض عبر مراحل التاريخ.

الزاوية الثانية تتصل بما صدر من فتوى غائمة عن فضيلة شيخ الأزهر حيث أفتى بتحريم العمليات الموجهة ضد المدنيين من أهل الكتاب.

ولا شك أن فتوى فضيلة شيخ الأزهر صحيحة من حيث المبدأ، فالإسلام بكل تأكيد يحرم قتل المدنيين، ولكن هل ينطبق هذا المشهد على الواقع القائم في الأرض المحتلة. ثمة أفواج متتابعة من القادمين من شتات الأرض، جاؤوا عن عمد وتصميم وقاموا باقتلاع شعب آمن مسالم من أرضه، فقتل

من قتل وشرد وجرح من جرح، ثم عمد
الغازي إلى محراب الزور والدجل وراح
يلتحف لحاف البراءة على أساس أنه مجتمع
مدني وأن الإسلام لا يجيز قتال المدنيين!..
إن المشهد ليس كذلك بكل تأكيد، فالعدو
الإسرائيلي كله مجتمع معسكر محارب،
والمستوطنون الصهاينة - بلا استثناء - لا
يفارقهم سلاحهم حتى وهم يؤدون مناسكهم
وهو شيء موجه مباشرة إلى صدر الشعب
الفلسطيني الأعزل، فهل يسوغ تسمية
هؤلاء بأنهم شعب مسالم بريء؟!..
بالتأكيد إن فتوى سماحة شيخ الأزهر صحيحة
في معاملة اليهود الذين يعيشون في بلادهم
المختلفة في الأرض، والذين يرفضون أن
يسبغوا على الدين هذا المعنى العنصري،
ويدركون كم كانت فكرة الكيان الصهيوني
مؤامرة على الدين اليهودي في المقام
الأول، ناهيك بالمظالم التي تكتوي بها
الشعوب العربية والإسلامية.
وهذا المعنى يجعل سائر الصهاينة المقيمين
في فلسطين شركاء في الإثم باستثناء
اليهود الذين كانوا يعيشون في فلسطين
قبل وعد بلفور.
إن اليهودي الذي ولد بين أبوين تواطأ على
الغدر والمكر، مكلف ومسؤول أخلاقياً بأن
يسعى إلى رفع هذه المظالم عن رقاب
الأبرياء، وهو ما قام به يهود شرفاء، ولكنهم
للأسف لا يزالون قلة نادرة بحيث لم يفلحوا
في رسم صورة ضمير اليهودي مستيقظاً، ولا
شك أن الأفراد الذين يقومون بمثل هذا
الدور الشريف سيخلد التاريخ كفاحهم إلى
جانب أبطال الانتفاضة بجامع أن كلا منهما

يرفض الظلم والشر والقهر، ويسعى إلى
بناء الحياة على مثل أكثر عدالة ورحمة.
ومع أن التورط الجزائي حقيقي في كل
يهودي استجاب للدعاية الصهيونية، وترك
بلده وجاء هنا يمارس القهر والاستيطان،
ولكنني أود أن أطمئن سماحة شيخ الأزهر أن
المجاهدين الذين يقذفون بأنفسهم إلى
ساحة الموت لا يتخذون مدارس الأطفال
والمشافي مسرحاً لعملياتهم كما يفعل
الصهاينة، وإنما هم يعمدون إلى نقاط
عسكرية ومراكز حربية وشخصيات سياسية
صهيونية في المقام الأول.
كما أشعر بالحزن وأنا أخط هذه السطور،
حين أدرك أنني أكتب من أجل إثبات براءة
الاستشهاديين الذين هم في الواقع أشرف
أبناء هذه الأمة، والذين نحتاج جميعاً لتزكيتهم
وشهادتهم يوم القيامة، وإني: أحمد الله أن
هؤلاء الاستشهاديين لا ينتظرون ولم يكونوا
ينتظرون أصلاً فتاوى من هنا وهناك من أجل
أن يبادروا بإحياء رسالة الجهاد في الإسلام،
ولو أنهم انتظروا فتاوى العرب وجيوش
العرب لكانوا جزءاً من هذا السراب الكبير
الذي كان يمارس الجعجة والصخب، ثم أصبح
اليوم يستحي حتى من الصخب والغضب
حفاظاً على الهدوء والهمود.